تفسير القرآن الكريم

مقال التفسير هذا مما كان قد أعده الأستاذ الكبير المرحوم الشيخ محمد محمد المدنى لمجلة رسالة الإسلام وهو رئيس تحريرها ، وقراء المجلة ورواد العلم وطلابه يعرفونه رحمه الله بآثاره التى قدمها لهم فى صور متعددة من المقالات والأبحاث والكتب ، مطولة وموجزة . وإذا كنا بالنشر نلبى رغبة كانت عنده فإنما نقصد كذلك إلى تجلية خصائص أسلوبه فى عمق الفكرة واستقلال الرأى ودقة النظر .

ونرجو أن نوافى السادة القراء تباعا بما لدينا من آثاره القيمة ، عرفاناً بفضله وعلمه ، إن شاء الله تعالى . [المحرر]

سورة الأنعام

والأهداف الأولى للإسلام

— ١ —

متى نزلت سورة الأنعام — نزولها بمكة جملة واحدة — معنى قولهم : (نزلت الآية فى كذا) وقوع كثير من الاضطراب فى إلحاق المدنى بالمكى وعكسه — أخطاء وقعت فيها لجنة الإشراف على طبع المصحف الفؤادى — تحقيق أن الآيات التسع التى استثنوها من سورة الأنعام مكية — لم سميت السورة بسورة الأنعام — الفترة التى نزلت فيها هذه السورة كانت فترة نضال فكرى عنيف بين الإسلام والشرك — سورة الأنعام مظهر كامل لهذا النضال .

**

متى نزلت سورة الأنعام :

« سورة الأنعام » أول سورة مكية من السور الطوال فى ترتيب المصحف ، أما فى ترتيب النزول فقد قالوا : إنها السورة السادسة والخمسون ، وقد نزل قبلها مباشرة عدة سور تلتقى معها فى كثير من أغراضها وأسلوبها ، وأقرب هذه السور إليها نزولا هى سورة : « الحجر » .

وقد يدلنا ذلك على أن سورة الأنعام نزلت فى السنة الرابعة من البعثة ، إذ أن سورة الحجر التى نزلت قبلها مباشرة تشتمل على آية معروفة التاريخ ، هى قوله تعالى خطابا لنبيه الكريم : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » يقول ابن إسحاق صاحب السيرة : « ثم إن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، أن يصْدع بما جاءه منه ، وأن يبادئ الناس بأمره ، وأن يدعو إليه ، وكان بين ما أخفى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أمْرَه واستسرّ به ، إلى أن أمره الله بإظهاره ثلاثُ سنين - فيما بلغنى - من مبعثه ، ثم قال له : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » اهـ كلام ابن إسحاق - فإذا انضم إلى هذا ما هو معروف من أن الوحى كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه الفترة متتابعاً ، أمكننا أن نرجح أنه لم يقع فاصل زمنى طويل بين نزول سورة « الحجر » ونزول سورة « الأنعام » وأنهما نزلتا فى السنة الرابعة .

وإنما اهتممنا ببيان ذلك واستخرجنا دليله ، لأنه يفيدنا فى معرفة الجو الذى نزلت فيه هذه السورة ، ومعرفة ذلك تفسر لنا عنايتها بما عنيت به من الأغراض .

نزولها بمكة جملة واحدة :

وقد اختُلف فى نزول هذه السورة : هل نزلت جملة واحده ، أو نزلت مفرقة ؟ وهل كان نزولها كلها بمكة ، أو نزل بعض آياتها بالمدينة ؟ ثم الذين قالوا بنزول بعض آياتها بالمدينة قد اختلفوا فى تحديد هذه الآيات على أقوال شتى ، والصحيح من هذا كله أنها نزلت كلها بمكة جملة واحدة ، وعليه أكثر المحققين من المفسرين ، وقد أورد ابن كثير فى تفسيره الروايات التى تثبت ذلك ، وأعرض عما سواها ، وابن كثير حافظ نقادة من الذين يعرفون كيف يتخيرون .

معنى قولهم : « نزلت الآية فى كذا » ووقوع كثير من الاضطراب فى إلحاق المدنى بالمكى وعكسه :

والسبب فى وقوع هذا الاختلاف تعارض الروايات فى هذا الشأن ، واختلاف مناهج الترجيح ؛ وينبغى أن يعلم أن ما ذكر فى أسباب النزول ، وفى إلحاق آيات مكية بسورة مدنية ، أو آيات مدنية بسورة مكية ؛ قد داخله كثير

مما يُحدث الاشتباه ويوجب الدقة والحذر فى القبول ، وقد نبه إلى ذلك أهل هذا العلم ، انظر ما نقله السيوطى فى الإتقان عن ابن تيمية والزركشى ، وخلاصته : أن قولهم : نزلت هذه الآية فى كذا ، يراد به أحياناً سبب النزول ، وأحياناً أن حكم الآية يشمله وإن لم يكن هو السبب ، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية ، لا من جنس النقل لما وقع ، وقد تنازع العلماء فى قول الصحابى نزلت هذه الآية فى كذا : هل يُجرى مُجرى المسند كما لو ذكر السبب الذى أنزلت لأجله ، أو يُجرى مُجرى التفسير منه الذى ليس بمسند ، فالبخارى يدخله فى المسند ، وغيره لا يدخله فيه ، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح . اهـ

واقرأ ما نقله السيوطى أيضاً عن ابن الحصار حيث يقول : « كل نوع من المكى والمدنى منه آيات مستثناة ، إلا أن من الناس من اعتمد فى الاستثناء على الاجتهاد . وقد استُثنى من سورة الأنعام تسع آيات - ولا يصح به نقل ، خصوصا قد ورد أنها نزلت جملة » اهـ كلام ابن الحصار .

أخطاء وقعت فيها لجنة الإشراف على طبع المصحف الفؤادى :

وقد اقتحمت اللجنة التى أشرفت على طبع المصحف الفؤادى المتداول ميداناً ما كان لها أن تقتحمه ، ذلك أنها عنيت بأن تنبه بين يدى كل سورة من سور القرآن المدنية أو المكية بذكر ما استثنى من الآيات ، فتراها مثلا تقول : « سورة كذا مكية إلا آيات كذا وكذا فمدنية » ولا شك أن الحكم بذلك ليس قاطعاً ، وإنما هو حكم فى أمر خلافى ، ولا ينبغى أن يوضع مثله هذا الموضع فى المصحف بين يدى السور ، فإن كثيراً من الناس يظن أن ذلك أمر مُسلم ، وخبر متفق على صحته ، مع أن اللجنة قد تختار مرجوحا ، وقد لا تتنبه إلى ما فى بعض الروايات التى تعتمد عليها من مقال فى المتن أو فى السند ، ولكى يشاركنا القارىء فيما نحس به من خطأ هذه الخطة نورد أمثلة مما جاء بين يدى السور الكريمة من ترجيحات هذه اللجنة ، ونناقشه مناقشة يسيرة :

(١) فمن ذلك أنها كتبت عن سورة يونس أنها مكية إلا آيات استثنتها ، ومن هذه الآيات آية ٩٦ ، وهى قوله تعالى : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك

لا يؤمنون » فهذه الآية مدنية فى الرواية التى اعتمدت عليها اللجنة ، مع أن بعدها مباشرة آية متصلة بمعناها اتصالا يقضى بأنها نزلت معها ، بعدها لا قبلها ، هى قوله تعالى : « ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » فظاهر أن قوله : « ولو جاءتهم » مبالغة على قوله : « لايؤمنون » فكيف نتصور أن كل واحدة منهما نزلت فى وقت ، ثم نتصور أن المبالغة نزلت قبل الأصل المبالغ عليه .

(٢) ومن ذلك أنها كتبت عن سورة مريم أنها مكية إلا آيتى : ٥٨ ، ٧١ فمدنيتان ، وهاتان الآيتان هما :

أولا : قوله تعالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجَّداً و بُكِيا » .

هذه آية « ٥٨ » وهى تبدأ باسم الإشارة « أولئك » وقد سبق ذلك حديث السورة منذ أولها عن الأنبياء والصديقين ، فقد ذكرت زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وإسماعيل وإدريس ، فمن الواضح أن الإشارة لهؤلاء ، فإذا قيل إن الله ذكرهم فى مكة ، ثم أشار إليهم بهذه الإشارة فى المدينة كان ذلك موضع نظر .

ثانياً : قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » هذه هى الآية « ٧١ » المستثناة ، أى أنها مدنية ، مع أن بعدها قوله تعالى : « ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » والمعنى يقتضى أن يكون ترتيب نزولها حسب ترتيب ورودهما فى المصحف ، لأن الآية الثانية مترتبة فى المعنى على الآية الأولى ، فالورود سابق على الإنجاء ، فكيف يعكس الأمر ، فيجعل المتأخر طبعاً متقدماً وضعاً ؟ .

(٣) وشبيه بهذا ما قالوه فى سورة يوسف ، فهى مكية كلها إلا الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ فمدنية .

ومعنى هذا أن الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦ مكية ، وهى قوله تعالى : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا » إلى قوله : « كما أتمها على أبويك من

قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم » وأن قوله بعد ذلك مباشرة : « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين » مدنى ، وقد جاء بعده مباشرة أيضاً آيات مكية أخرى هى : « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة » إلى آخر السورة ، والضمير فى « قالوا » للإخوة ، فانظر أيها القارىء كيف يريدوننا على أن نفهم أن ضميراً فى آية مكية متقدمة نزولا يعود على مذكور فى آية مدنية متأخرة ، وكيف اقتطعوا جملة من قصة ففرقوا بينهما فى الوطن إلى هذا الحد ؟ .

تحقيق أن الآيات التسع التى استثنوها من سورة الأنعام مكية :

هذه أمثلة من المصحف الشريف عامة ، فلننظر فيما فعلوه فى سورة « الأنعام » خاصة .

إنهم أعرضوا عن جميع الروايات القوية القائلة إن هذه السورة نزلت جملة واحدة ، وأخذوا بكل رواية تستثنى أيّة آية من الآيات ، فكتبوا بين يدى السورة فى المصحف هذا التنبيه : « سورة الأنعام مكية إلا الآيات : ٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ فمدنية » فهل هذا الحكم صحيح ؟ .

(١) أما الآية العشرون فهى قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » .

ويظهر أنهم لما وجدوا الحديث فى هذه الآية عن أهل الكتاب ، ووجدوا أن هذه الآية نظيرة لآية أخرى مدنية تبدأ بما بدأت به ، وهى قوله تعالى فى سورة البقرة : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » ١٤٦ ، ومن المعروف أن صلة الإسلام بأهل الكتاب إنما كانت بعد الهجرة ، وفى المدينة دون مكة - لما وجدوا هذا قرروا أن الآية مدنية ، فالمسألة ليست إلا اجتهاداً حُسب روايةً مسندة ، وهو اجتهاد غير صحيح ، ويعرف ذلك بما رواه البغوى فى تفسيره عند قوله تعالى : « قل أى شىء أكبر شهادة » وهى الآية التاسعة عشرة ، أى الآية السابقة لآيتنا هذه ، قال : قال الكلبى : أتى أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : أرنا من يشهد أنك رسول الله ، فإنا لا نرى أحداً يصدقك ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى

فزعموا أنه ليس عندهم ذكر ، فأنزل الله تعالى قوله : « قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم » .

فهذه الرواية تدل على أن أهل مكة كانوا يأتون أهل الكتاب ويسألونهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد ورد فى رواية أخرى ذكرت فى تفسير سورة الكهف أن قريشا بعثت النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط على رأس وفد منهم إلى أحبار اليهود يسألونهم عن محمد ويصفون لهم صفته ويستخبرونهم عنه الخ . ومعنى كون الآية نزلت فى ذلك أنها نزلت متضمنة الرد على ما زعموا من أن أهل الكتاب لا يعرفون النبي ، وليس فى كتبهم ذكر له ، فالله تعالى قد أنزل هذه السورة جملة واحدة ، وفيها الرد على ماكان المشركون يزعمونه ، ومنه هذا الزعم المروى عن أهل الكتاب ، فإذا نظرنا إلى ذلك فهمنا أن الرد عليهم جاء فى الآيات الثلاث المبدوءة بقوله تعالى : « قل أى شىء أكبر شهادة » فالله تعالى يثبت صدق محمد صلى الله عليه وآله وسلم بشهادته هو ، وهى أكبر شهادة ، وليس بالرسول ولا بهم حاجة مع شهادة الله إلى شهادة غيره ، ثم يكذب الدعوى المزعومة المنقولة عن أهل الكتاب من أنهم لا يعرفون محمداً ، وليس له ذكر فى كتبهم ، فيقول : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » أى فزعمهم الذى زعموا لكم باطل وكذب وافتراء ، ثم يقول : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون » .

وبهذا يتبين أن الآيات الثلاث تكوّن وحدة متماسكة فى معنى معين مقصود فى وقت واحد ، وأن الذين زعموا نزول الآية الوسطى من هذه الآيات وحدها بالمدينة ، إنما اجتهدوا فأخطئوا .

(٢) وأما الآية الثالثة والعشرون ـ وهى الآية الثانية من الآيات التى قرروا أنها نزلت بالمدينة ـ فهى أيضاً آية متوسطة بين آية قبلها وآية بعدها ، والآيات الثلاث فى معنى واحد ، ونحن نسوق هذه الآيات لنرى ما تفيده ، ثم نعقب برأينا : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون » ٢٢ « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ماكنا مشركين » ٢٣ « انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » ٢٤ .

فالآية الأولى تتضمن سؤالا يوجَّه إليهم يومئذ تبكيتاً لهم ، والآية الثانية تصور حيرتهم حين يلقى عليهم هذا السؤال ، واضطرارهم إلى الخروج من مأزقهم بإنكار ما كانوا عليه فى الدنيا من الشرك ، والآية الثالثة تعقب على هذا فتلفت النظر إلى كذبهم على أنفسهم ، وضلال شركائهم عنهم ، أى عدم وجودهم يومئذ لينقذوهم ، فهذا معنىً واحدٌ متماسك لا ينبغى أن يمزَّق فيجعلَ بعضه فى مكة وبعضه فى المدينة ، فما الذى حملهم على ذلك ؟ إنه اجتهاد خاطىء أيضاً ، يفسره لنا قول قاله ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية ، فقد نقل عن الضحاك عن ابن عباس أنه يقول فى آية « ثم لم تكن فتنتهم » : هذه فى المنافقين ، ثم عقب ابن كثير على هذه الرواية بقوله : « وفيه نظر ، فإن هذه الآية مكية - أى بناء على ترجيح أن السورة كلها مكية - والمنافقون إنما كانوا بالمدينة ، والتى نزلت فى المنافقين آية المجادلة : « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ، ألا إنهم هم الكاذبون » وهكذا قال فى حق هؤلاء « انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » كقوله - أى عن المشركين فى سورة غافر - : « ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله : قالوا ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا ، كذلك يضل الله الكافرين » .

فكأنى بابن كثير يقول لمن زعموا أن الآية مدنية : لقد أخطأتم فهى مكية ، وجاءكم الخطأ من أنكم ظننتم أن الحلف فى آية الأنعام : « والله ربنا ما كنا مشركين » هو الحلف المذكور فى آية المجادلة : « فيحلفون له كما يحلفون لكم » فإن المجادلة سورة مدنية ، وآيتها فى المنافقين ، فهذا هو الذى أفضى بكم إلى الخطأ ، والحقيقة أن آية الأنعام مكية ، وأنها فى المشركين الذين كانوا فى مكة ، وليست فى المنافقين الذين كانوا بالمدينة ، فإذا أردتم أن تعرفوا أن هذا المعنى جاء فى غير هذا الموضع من المكى ، فاقرءوا سورة غافر المكية ، فإن فيها هذا المعنى ، وذلك قوله تعالى : « قالوا ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا » .

بذلك يتبين أن الرواية التى اعتمدوا عليها - إن صحت - لا ينبغى أن تُجرى مُجرى الإسناد ، فإنما هى اجتهاد ظهر خطؤه ، والله أعلم .

(٣) وأما الآية الحادية والتسعون من سورة الأنعام فهى مكية أيضاً كسائر آيات السورة ، وإنما وقع الاشتباه من أن فيها خطاباً حسبوه لليهود ، فالآية هى قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » والاشتباه جاء من قراءة : « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » بتاء الخطاب ، قالوا فالذين كانوا يجعلون الكتاب الذى جاء به موسى قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً هم اليهود ، وهم المخاطبون ، فلا بد أن تكون الآية نزلت بالمدينة ، لأنه لا يخاطب فى مكة من كان بالمدينة .

وهذه الشبهة وإن بدت قوية يعارضها أمور :

أحدها : أن اليهود لم يكونوا ينكرون إنزال الله وحيه على البشر ، وكيف ينكرون ذلك وهم أتباع نبي جاء بالوحى وبين أيديهم كتابه الذى أنزله الله عليه وهو التوراة ، وإنما الذين ينكرون أن لله رسلا من البشر هم كفار مكة ، وفى ذلك يقول ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : قال ابن عباس ومجاهد وعبد الله ابن كثير : نزلت فى قريش ، واختاره ابن جرير ، وقيل نزلت فى طائفة من اليهود ، وقيل فى فنحاص - رجل منهم - وقيل فى مالك بن الصيف « قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » والأول أصح ، لأن الآية مكية ، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرساله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه من البشر كما قال : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس » وكقوله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » وقال هنا : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » قال الله تعالى : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » أى قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب

من عند الله فى جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة : « من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى » ، وهو التوراة التى قد علمتم وعلم كل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران ؟ اهـ كلام ابن كثير .

ثانيها : أن الآية تقول بعد ذلك : « وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » وذلك فى المشركين أظهر ، لأنهم لم يكونوا على علم كأهل الكتاب ، ويؤيده ما جاء عنهم فى مثل قوله تعالى : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » . « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ، وإذا ترجح بهذا أن الخطاب فى هذه الجملة للمشركين كان من البعيد أن يكون ما قبلها فى الآية نفسها خطاباً لقوم آخرين .

ثالثها : أن الآية التى جاءت بعد هذه تشير إلى القرآن الذى أنزله الله على محمد لينذر به أم القرى ومن حولها : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها » فهى تضم القرآن إلى التوراة فى رد ما ألفوا أن يقاوموا به دعوة الحق من إنكار الوحى إلى البشر ، فكأنه يقول لهم : إن الله تعالى ينزل الوحى على رسله ، وذلك هو كتاب موسى الذى سمعتم به ، وهذا هو القرآن الذى ينزل فيكم مصدقاً لما بين يديه ، ومباركا ، وعاما للناس أجمعين .

رابعها : أن السياق قبل هذه الآية التى ظنوها مدنية قد عنى باستعراض الأنبياء الكرام بعد قصة محاجة إبراهيم لقومه ، فى آيات متوالية من قوله تعالى : « ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا » ، إلى قوله جل شأنه : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين » .

فهذا السياق يرشد إلى أن الغرض هو الرد على ما يزعمه المشركون فى مقاومتهم للرسول من أن الله تعالى لا ينزل على البشر كتباً ، فلذلك عدد الله تعالى فى هذه الآيات أكثر الأنبياء ، وأنبأ أنه هو الذى هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة ، وأمرهم ثابت ، وإنزال الوحى عليهم ثابت ، فإن يكفر بهذه الحقيقة هؤلاء

المعاندون الذين يقولون : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقد وكل الله بها قوماً ليسوا بها بكافرين ، فهى حقيقة متقررة ، آمن هؤلاء بها أم لم يؤمنوا ، وليس فى إرسال الرسل من البشر ، وإنزال الكتب عليهم ما يتنافى مع شيء من صفات الألوهية حتى يعجبوا منه أو ينكروه ، وإنما هو على العكس من ذلك مما تقضى به حكمة الإله ورحمته وسنته فى دعوة البشر إلى ما ينفعهم ، فالذين ينكرون ذلك لا يقدرون الله حق قدره ، ولا يعرفون ما هو من مقتضيات حكمته ورحمته وسنته فى الهداية .

هذه هى الوجوه التى يترجح بها أن الآية مكية كسائر آيات السورة ، وهى التى تعارض شبهتهم فى أن الأفعال : « تجعلونه » و « تبدونها » و « تخفون » دالة على أن الخطاب لليهود ، ولم يكن اليهود إلا بالمدينة .

ولكن معارضة هذه الشبهة بما ذكرنا لا يعفى الباحث فى هذا الشأن من تخريج الأمر فيها ، وقد حاول بعض المفسرين ذلك على أساس أن الآية نزلت مرتين ، إحداهما بمكة ، والأخرى بالمدينة ، وأن اليهود بالمدينة قالوا كما قال المشركون بمكة : « ما أنزل الله على بشر من شيء » قالوا ذلك عناداً ولجاجاً كما فى بعض الروايات ، ويعرف ذلك فى نظرهم من أن فى الآية قراءتين : « يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا » بالياء التحتية ، وهذه هى القراءة التى نزلت بمكة ، فهى تحدث المشركين بأن اليهود يجعلون الكتاب الذى جاء به موسى قراطيس الخ . والقراءة الأخرى بتاء الخطاب فى الأفعال كلها ، وهذه القراءة هى التى نزلت بالمدينة فى مواجهة اليهود خطاباً لهم .

وممن بنى على هذا صاحب المنار فى تفسيره ، ولست أوافقه ، فإن القول بنزول شيء مرة بمكة ومرة بالمدينة ليس بذلك ، ولا يطمئن إليه الباحث ، والروايات التى تأتى بمثل ذلك محتملة للخطأ ، فقد يقع حادث بالمدينة تنطبق عليه آية مكية فيتلو الرسول هذه الآية عند الحادث ، فيظن أنها نزلت مرة أخرى بالمدينة ، وإنما تليت تلاوة ، وقد يكون المروى عنه لم يسمع الآية من قبل فيظنها نزلت حينئذ فيقول ذلك فيروى عنه ، على أنه لا نتبين الفائدة من نزول شيء واحد مرتين .

ولكنى أحل هـذا الإشكال على نحو آخر ، ذلك أن قراءة الأفعال بالياء على الحديث عن الغائبين ظاهر فى أن الآية مكية ، وأنه تعالى يلزمهم بما يعرفونه من نزول الكتاب على موسى - وكان العرب يعرفون ذلك ويسمعون به - ثم يلزمهم بما ينزل فيهم من القرآن فى قوله : « وهذا كتاب أنزلناه . . . . » الآية ، فهذه القراءة ظاهرة ولا تحتاج إلى تخريج ، أما قراءة الأفعال بالخطاب « تجعلونه » و « تخفونها » ، و « تبدون » وهى القراءة التى نقرأ بها عن حفص ، فالخطاب فيها كما أرى - والله أعلم - موجه إلى الناس على الجملة لا إلى مشركى مكة ، ولا إلى يهود المدينة ، فالله يقول : قل يا محمد لكل من حدثته نفسه بهذه الشبهة ، وهى الشبهة فى إنزال الوحى على البشر : « من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى » - وذلك أن هذه الشبهة عالمية إنسانية ، أى أن الإنسان يتحير فى أمر نزول الوحى على بشر ، لأنه يعرف فى نفسه الضعف والبعد عن الاتصال بالله والملأ الأعلى على هذا النحو الذى يطلب منه الإيمان به ، ولكنه مع ذلك مفطور على الإيمان بقوى غيبية يراها تسير هذا الكون وتسخره ، وتقدر له وتدبره ، فيقول فى نفسه لعل الوحى مما تفعله هذه القوى الغيبية ، ولذلك نراهم يتوسطون فى نفيهم والتعبير عن شبهتهم فلا يقولون : لاينزل الله وحيا ، ولكن يقولون : « ما أنزل الله على بشر من شىء » . « أو أبعث الله بشراً رسولا » . . « إن هذا إلا رجل منكم يريد أن يتفضل عليكم » . . الخ فهو إنكار لوقوع ذلك لا لجوازه ، أو كما يقول ابن كثير : هو سلب عام ، جوابه الإثبات الجزئى - ونعود إلى موضوعنا فنقول : إن الخطاب لكل من تعتريه هذه الشبهة من الناس ، وقوله تعالى : « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » موجه إلى الناس على معنى أن فيهم من جعله كذلك ، وهم اليهود ، فالناس مسئولون عن ذلك فى الجملة ، لأنه صادر من بعضهم ، كأنه قال : ألم ننزل عليكم أيها الناس كتاباً هو الذى جاء به موسى فجعلتموه - أى جعله بعضكم وجنسكم - قراطيس . الخ .

وقد يُستظهر على هذا بأن بيئة الكلام وسياقه وجَوّه فيها إشعار بأن الحديث ليس إلى قوم مخصوصين ، وإنما هو إلى الناس ، إلى العالمين ، إلى البشر ، فقبل

الآية ذُكر الأنبياء واحداً بعد واحد، وهم يمثلون قروناً متطاولة من عهود البشرية، وقبل الآية أيضاً يقول الله تعالى: «إن هو إلا ذكرى للعالمين» وفى الآية: «الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس» وبعد الآية عن القرآن: «لتنذر أم القرى ومن حولها» كل ذلك يشعر بأن المعنى فى قراءة الخطاب على مخاطبة البشر الذين من شأنهم أن يَعجبوا من ذلك ويترددوا فى حصوله إذا لم يتدبروا، وبذلك تكون الآية مكية، ويحَل إشكال القراءة المشهورة، والله أعلم.

(٤) تأتى بعد ذلك الآية الثالثة والتسعون: «ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء»: ظنوا أن المقصود بالكلام مسيلمة الكذاب والأسود العنسى اللذان ادعيا النبوة فى السنة العاشرة، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى مرضه، والرواية - إن صحت - من قبيل تقرير أن حكم الآية يشمل هذا الادعاء، لا أنها نازلة فى ذلك خاصة، على أنهم صرحوا بعدم صحة هذه الرواية؛ وطعنوا فى كل ما ورد متعلقا ببيان سبب نزول هذه الآية.

(٥) أما الآية الرابعة عشر بعد المائة من هذه السورة، فسبب اشتباههم فيها، وحكمهم بأنها مدنية، هو ماجاء فيها من قوله تعالى: «والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين» فلما رأوا أن الحديث عن أهل الكتاب وهم فى المدينة قالوا الآية مدنية، وقد علمت أن هذا اجتهاد لا نقل، لأنه لا مانع من الحديث عن أهل الكتاب فى مكة، فقد كانوا يتصلون بهم ويسألونهم عن النبي ويصفونه لهم ويستخبرون خبره منهم، والرواية ضعيفة مع ذلك.

(٦) والآية الحادية والأربعون بعد المائة، نزلت فى سياق تحريم المشركين ما لم يحرمه الله من الأنعام والحرث، وقد ظنوا أنها مدنية بقوله تعالى فيها: «كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده» قالوا إن الزكاة لم تفرض إلا فى السنة الثانية من الهجرة بالمدينة، وهذه الآية تشير إلى حق الحرث، وهو الزكاة المفروضة، وبذلك يقول بعض أهل العلم وأصحاب الرواية - والحق أن الآية فى

الصدقة المطلقة غير المحدودة ، وقد كانوا يعطون عند الحصاد من ثمارهم ، كلٌّ وما يجود به ، فهذا هو حق الزرع الذى كان معهوداً عندهم ، ثم جاء تشريع الزكاة لحدد المقادير نصاباً وزكاة ، وكان ذلك فى المدينة ، والحاصل أن الزكاة كانت أولا صدقة مطلقة وأقرت بمكة ، ثم بينت مقاديرها بالمدينة ، ومع هذا لم تصح الرواية القائلة باستثناء هذه الآية من السورة التى نزلت كلها بمكة جملة واحدة .

(٧) لم يبق بعد ذلك إلا الآيات الثلاث ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ من السورة : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم . . . » الآيات ، وقد صحح بعضهم رواية عن ابن عباس باستثنائها وتقرير أنها مدنية ، وقد نقد الشيخ رشيد رضا هذه الرواية : « بأن ابن عباس لم يكن بمكة ممن يحفظ القرآن ويروى الحديث ، فإنه ولد قبل الهجرة بثلاث أو خمس سنين ، وإنما روى ذلك عن غيره ، فيحتمل أن يكون الاستثناء من رأيه أو رأى من روى عنه ، أو أن يكون مروياً بالمعنى ، ويكون بعض الرواة هو الذى عبر بالاستثناء .

وهكذا يتبين أن ما أخذت به لجنة الإشراف على طبع المصحف الفؤادى من أن بعض آيات هـذه السورة نزل بالمدينة غير مقبول ، لا من جهة الرواية ، ولا من جهة المعنى وارتباط الآيات كما بينا ، والله أعلم .

لم سميت السورة بسورة الأنعام :

وقـد سميت هـذه السورة بسورة « الأنعام » — والأنعام ذوات الخف والظلف ، وهى الإبل والبقر والغنم ، بجميع أنواعها — لأنها هى السورة التى عرضت لذكر الأنعام على تفصيل لم يرد فى غيرها من السور ، بيان ذلك أن ذكر « الأنعام » و « النعم » ورد فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم عرَضاً ، مثل قوله تعالى : « زيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث » . « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » . « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام »

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » . « فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم » إلى غير ذلك .

وجاء فى سور أخرى من القرآن ذكر بعض أحكام الأنعام ، ففى سورة المائدة : « أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم » وفى سورة الحج « وأحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم » ولكن هذا الحكم هو بيان حلها ، وما استثنى من هذا الحل فليس فيه تفصيل لشئون كثيرة تتصل بالأنعام .

نعم جاء فى سورة المائدة أيضاً حديث عن الأنعام يشبه بعض ما ورد فى هذه السورة ، وذلك هو قوله تعالى : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » وفى ذلك شىء من التفصيل لأنواع من الأنعام تعلق بها افتراء المشركين ، وتحريمهم الباطل لما لم يحرم الله ، ولكنه على هذا إنما يتناول جانباً واحداً من جوانب كثيرة .

أما سورة الأنعام فقد جاءت بحديث طويل عن الأنعام استغرق خمس عشرة آية منها ، من أول الآية : ١٣٦ ، إلى آخر الآية : ١٥٠ .

وقد تناول الحديث عن الأنعام فى هذه الآيات من السورة جوانب متعددة تتصل بعقائد المشركين فيها :

تناول ما كانوا يعملونه من تقسيم الحرث والأنعام قسمين ، وجعلهم قسما لله يتقربون به إليه فيقرون به الضيفان ، ويكرمون به الصبيان ، ويتصدقون به على المساكين ، وقسما لشركائهم يذبحونه على أنصابها نسكا ، ويمنحونه لسدنتها وينفقون منه على دورها وأماكنها ، وقد كانوا بعد هذه القسمة المنكرة التى تعدل بالله سبحانه أوثاناً لا تنفع ولا تضر - كانوا يجورون على القسم الذى جعلوه لله ، فيحولونه أحياناً ، أو يحولون قسما منه إلى الأغراض العائدة على الشركاء ، ولا يجورون على القسم الذى جعلوه للشركاء بإيصال شىء منه للفقراء أو الضيفان ، وذلك هو قوله تعالى : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا

هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون » .

وتناول الحديث فى هذه السورة تقسيما آخر من تقسيماتهم المخترعة المبنية على شركهم ، حيث جعلوا الأنعام ثلاثة أنواع : نوعا حرموه واحتجروه وخصصوه بآلهتهم ، وكانوا لا يطعمون منه إلا الرجال ، ويقولون إن شئنا أطعمنا منه النساء ، وإن شئنا لم نطعم - وهذا النوع فى كلٍّ من الأنعام والحرث .

ونوعا آخر : هو تلك الأنعام التى حرموا ظهورها فلا تركب ، وهو البحيرة والسائبة والحامى ، المذكورة فى آية المائدة : « ما جعل الله من بحيرة ... » .

والنوع الثالث : أنعام لا يذكرون اسم الله عليها فى الذبح ، بل يُهِلون بها لآلهتهم وحدها ، وذلك هو قوله تعالى : « وقالوا هذه أنعام وحرث حِجْر لا يَطعَمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، افتراء عليه ، سيجزيهم بما كانوا يفترون » .

وتناول حديث الأنعام كذلك حكما ثالثاً من أحكامهم الجائرة ، فقد كانوا يجعلون ألبان بعض الأنعام وبعض أجِنَّتها حقاً خالصاً لذكورهم لا يصيب منه الإناث شيئا ، فكان الجنين إذا ولد ذكراً حيا جعلوه للذكور ، وإذا نزل ميتا جعلوه للذكور والإناث جميعاً ، وإذا جاء أنثى احتفظوا بها للنتاج ، وذلك قوله تعالى : « وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » .

وتناول الحديث فى السورة غير ذلك من شئون الأنعام ، محاجةَ المشركين فيما زعموه من تحريم بعضها ، مما سنعرض له فى موضعه إن شاء الله ، فلا نطيل الكلام فيه الآن .

فهذا هو الحديث المفصل لشئون الأنعام الذى جاءت به هذه السورة فى معرض الزراية على الشرك والمشركين ، والإبانة عما يخالط عقائدهم من الخلل والفساد .

وبذلك سميت : « سورة الأنعام » .

الفترة التى نزلت فيها هذه السورة كانت فترة نضال فكرى عنيف بين الإسلام والشرك :

علمنا أن هذه السورة نزلت بمكة فى السنة الرابعة من البعثة ، وأن ذلك كان عقب أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن يصدع بالدعوة ، ويعلنها للناس بعد أن أمرَّ بها ثلاث سنين ، وأنه قد نزل قبيل نزول هذه السورة سورٌ أخرى تتلاقى معها فى كثير من أغراضها وأساليب عرضها ، وأقربها إليها سورة الحجر التى نزلت قبلها مباشرة .

وهذه الفترة من فترات الدعوة الإسلامية كانت فترة عنيفة أشد العنف ، مملوءة بالمقاومة من الجانبين كأعظم ما تكون المقاومة ، فالمشركون مأخوذون بهذا النجاح الذى صارت إليه الدعوة حتى استطاعت أن تستعلن بعد الخفاء ، وأن تتحدى فى صوت عال ، ونداء جهير ، بعد أن كان المؤمنون بها يلجئون إلى الشعاب والأماكن البعيدة ليؤدوا صلاتهم ، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم ماض فيما أمره به ربه من الصدع بدعوة الحق ، يتلو عليهم ما أنزله الله عليه من كتابه ، وفيه إنذار لهم ، وتفنيد لمعتقداتهم ، وتسفيه لآرائهم ، وإنكار لآلهتهم ، وتهكم بأوثانهم وتقاليدهم البالية ، فكان منهم من يستمع إلى القرآن متأثراً بقوته أو متذوقا لبلاغته ، وكان منهم من ينأى عنه خوفاً منه ، وهؤلاء وأولئك يتواصون مع ذلك بالنأى عنه ، ويأخذ بعضهم على بعض العهود الوثيقة فى ذلك ، ثم لا يلبثون أن يتقابلوا عنده أو فى طريقه ذاهبين إليه ، أو منصرفين منه ، يتكرر ذلك المرة بعد المرة ، ويتلاوم عليه المتلاومون ، ثم يعودون .

يومئذ واجهت دعوة الحق أعداءها مسفرةً واضحة متحدية ، ووقف هؤلاء الأعداء مشدوهين مضطربين ، يشعرون فى أعماق نفوسهم بصدقها وكذبهم ، ويترقبون يوماً قريباً لانتصارها وانهزامهم ، ولا يجدون لهم حيلة إلا المكابرة والمعارضة المستميتة بما درجوا عليه من العقائد الباطلة ، وبادعائهم كذب الرسول ، وبزعمهم أن إرسال الرسل من البشر أمر لم يقع من قبل ، وأن الله لو شاء إبلاغ

عباده شيئاً لأنزل إليهم ملائكة ، وإنكارهم البعث والدار الآخرة ، واستماتوا في الدفاع عن عقائدهم وآلهتهم ، ونسوا أن محمداً عاش فيهم عمراً طويلا لم يقل فيه يوماً قولة كاذبة ، ولم يخن فيه يوماً أمانة أؤتمن عليها ، وأنهم لذلك كانوا يلقبونه بالصادق الأمين - لم يذكروا شيئاً من ذلك ، ولم يفكروا فيه ، ولكنهم فكروا فقط في أن الدعوة الجديدة التي استعلنت بعد استخفاء ، وتحدّت بعد ما ظنوه بها من الاستخذاء ، يجب أن تموت في مهدها ، ويجب أن تكتم أنفاسها قبل أن تنبعث حرارة هذه الأنفاس إلى البلاد والقبائل والشعوب .

ورحبت الدعوة الإسلامية بهذا النضال ، وتحملت جميع مقتضياته وأثقاله ، وكان ذلك أول النصر ، لأن النور لا يظهر إلا بالاحتكاك ، والمبادىء لا تعرف أو لا تشتهر أنباؤها إلا بالمعارضة ، ولأن الفرصة بذلك تسنح مراراً لأن يبتدىء الداعي بها ويعيد ، ولو أن دعوة من الدعوات قوبلت من الناس بالقبول ، فلم يختلف فيها اثنان ، لما كانت انقلاباً ولا إصلاحا ولا ثورة على وضع ظالم ، أو حكم فاسد ، ولما كانت إلا إقراراً للواقع على ما فيه ، ورضا بما هو حاصل ، فلا مبرر لقيامها ، ولا يمكن أن تحسب في التاريخ بين الدعوات .

سورة الأنعام مظهر كامل لهذا النضال :

أخذت سور القرآن في هذه المرحلة تتلاحق ، وأخذت آياتها تتعاون وتتآزر ، وكانت أغراضها متشابهة إلى حد بعيد ، وكان أولها وأحفلها بما نزلت له من أغراض بعد أمر الرسول بإعلان الدعوة والصدع بها : هو سورة « الأنعام » فقد جمعت كل العقائد الصحيحة ، وعنيت بالاحتجاج لأصول الدين ، وتفنيد شبه الملحدين ، وإبطال العقائد الفاسدة ، وتركيز مبادىء الأخلاق الفاضلة .

ولو أن ناظراً في هذه السورة أراد أن يستخلص من آياتها وعباراتها وأساليب حجَجها ما يتّخذ أساساً لمعرفة الدعوة الإسلامية في أصولها الاعتقادية ، المتعلقة بالألوهية والربوبية والرسالة والوحي والبعث والجزاء ، وما للمبطلين على ذلك كله من شبه ، وما يتبين به فساد شبههم من براهين وإشارات وتوجيهات -

لو أن ناظراً فى هـذه السورة أراد أن يتخذ منها ذلك لاستطاع ، ولوجد فيهـا ما يبتغى .

ولو أنه أراد أيضاً أن يجمع ما جاءت به ، أو أشارت إليـه من مبادىء الإصلاح الإسلامى للعالم ، ومن السنن الكونية ، والنواميس التى أرشد الله الناس إليها ، لجمع من هذا وذاك الكثير النافع .

ولهـذا جاءت الروايات ببيان فضل هـذه السورة ، وأن الله تعالى أنزلهـا مشيَّـعةً بالملأ العظيم من ملائكته ، وفى ذلك يقول الإمام الرازى فى تفسيره : « مفاتيح الغيب » :

« إن هـذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة ، أحدهما : أنهـا نزلت دفعة واحدة . والثانى : أنها شيعها سبعون ألفاً من الملائكة . والسبب فى ذلك أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين » .

ويقول القرطبي :

« قال العلماء : هذه السورة أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور ، وهـذا يقتضى إنزالها جملة واحدة ، لأنها فى معنى واحد من الحجة ، وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة ، وعليهـا بنى المتكلمون أصول الدين » .

وأقول : ولعل هذا هو السر فى أن هذه السورة جعلت أول سوره مكية فى المصحف من السور الكبار ، كما جعلت سورة « البقرة » أول سورة مدنية فى المصحف ، بل أول المصحف باطلاق بعد فاتحة الكتاب ، لأنهـا أول سورة نزلت بالمدينة ، ولمـا جمعته من أصول الدين ، وأصول الشريعة ، وبيان أحوال أهل الكتاب والمشركين والمنافقين ، وبيـان الخلق والتكوين ، وأهم الأحكام العملية .

— ٢ —

الأغراض الرئيسية لسورة الأنعام — وحدة الربوبية دليل على وحدة الألوهية — صلاحية هذا الدليل الفطرى لمشركى مكة ولغيرهم — جوانب أخرى عرضت لها السورة تركيزاً لعقيدة التوحيد .

نعرض للأغراض الأساسية لهذه السورة على وجه من الإجمال ، مبينين صلتها بالبيئة المكانية والزمانية حين نزولها . ضامّين من آيات السور الأخرى ما يشابه آياتها ، ويعين على إدراك مهمتها ، ومعرفة ما ترمى إليه ، فنقول :

إن الأغراض الرئيسية التى استهدفتها هذه السورة الكريمة هى تركيز العقائد الأساسية الثلاث التى كان المشركون يومئذ ينازعون فيها ، ويبنون أفكارهم وأعمالهم وتصرفاتهم على ما ينافيها ، وهذه العقائد الأساسية هى :

أولا : توحيد الله ، ويتصل بهذه العقيدة إقامة الدليل على وحدة الألوهية بلفت النظر إلى آثار الربوبية ، وإلى صفات الإله الخالق المتصرف ، كما يتصل بها إبطال عقيدة الشرك ، وشبه المشركين ، وتقرير أن العبادة والتوجه والتحريم والتحليل إنما ترجع إلى الله .

ثانياً : الإيمان برسوله الذى أرسل ، وكتابه الذى أنزل ، وبيان وظيفة هذا الرسول ، ورد الشبه التى تثار حول الوحى والرسالة .

ثالثاً : الإيمان باليوم الآخر ، وما يكون فيه من جزاء .

وحدة الربوبية دليل على وحدة الألوهيـة :

بدأت السورة بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين ، وعلى لسان كل رسول ، تلك الحقيقة التى تؤمن بها الفطر السليمة ، ويدل عليها هذا العالم بأرضه وسمائه وما فيه من مخلوقات ناطقة وصامتة ، ظاهرة وخافية ، وما فيه من تحولات وتقلبات ونور وظلمات ، وهذه الحقيقة هى أن الإله الذى له « الحمد » المطلق ،

والتنزيه الذى لا يحد هو : الله ، لأنه هو الذى « خلق » وهو الذى « جعل » فالخلق إنشاء وإبداع ، والجعل تصريف وتقليب ، والعالم أجمع فى دائرتيهما ، فلا ينفك شىء منه عن كلا هذين المظهرين : « خَلق » و « جَعل » ومقتضى ذلك أن المخلوق المجعول لا يمكن أن يتسامى إلى مرتبة الخالق الجاعل فيُعبد كما يعبد ، ويُقصد كما يقصد ، فذلك هو مطلع السورة : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » وكل ما جاء فى هذه السورة إنما هو بيان أو تفصيل أو تمثيل أو تطبيق على هذه الحقيقة ، أحياناً بصفة مباشرة ، وأحياناً بوسائط تقرب أو تبعد .

وهذا المعنى هو الذى يعبر عنه بعض العلماء بأنه الحكم بتوحيد « الألوهية » استدلالا بوحدانية « الربوبية » وذلك فى القرآن كثير ، فأول فاتحة الكتاب : « الحمد لله رب العالمين » وأول الكهف : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب » وأول فاطر : « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا » وفى سورة الحجر : « إن ربك هو الخلاق العليم » . « فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » .

ولو ذهبنا نتتبع هذا المعنى لأوغلنا فى التتبع ، ورأينا الكثير من الآيات ، فإن هذا هو أصل الأديان كلها ، وهو الحقيقة الأولى كما قلنا ، فحسبنا أن نعرض فيها بعض ما جاء في سورة « الأنعام » :

تلفت هذه السورة إلى مظاهر الربوبية ، وصفات الألوهية ، فتقول بعد مطلعها وفى ثناياها :

« هو الذى خلقكم من طين » . « وهو الله فى السموات وفى الأرض » . « فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى » . « فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا » . « وجعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » . « أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع » « أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه

حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه » . . « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه » إلى غير ذلك .

وتلفت إلى مظاهر الملك التام ، والسلطان القاهر فى الخلق ، والتصرف الكامل ، والعلم المحيط ، فتقول :

« قل لمن مافى السموات والأرض ؟ قل لله » . . « وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم » . . « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر » . . « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » . . « وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة » .

وتدعو إلى الموازنة بين الله جل علاه ، وما يتخذونه من الشركاء ، فتقول :

« قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » .
« قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به » .
« قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا » . « قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء » إلى غير ذلك .

صلاحية هذا الدليل الفطرى لمشركى مكة ولغيرهم :

وهنا قد يرد سؤال : هل كان مثل هذا الدليل الذى يستدل به القرآن فى هذه السورة وفى غيرها على صحة هذه العقيدة الأساسية مناسبا لعقيدة المشركين ، منطقيا فى إقناعهم ؟ بل لعل قائلا يقول : إن الأمر لم يزد فى ذلك على إلقاء دعوى بوحدانية الرب والإله ، ففيم الحجة فى هذا على العرب ، وفيم الحجة على غيرهم ؟ فنقول :

أما الحجة فى هذا على العرب ، فلأنهم كانوا يؤمنون بأن لهذا الكون ربا خالقاً منعما ، وأن هذا الرب هو الله ، وإنما كانوا مع ذلك يعبدون الأوثان ليقربوهم إلى الله زلفى ، ويقولون : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ، ولا يرون عبادة هذه الأوثان منافية لما يؤمنون به من ربوبية الله ، وفى القرآن الكريم آيات

كثيرة تدل على أن هذه هى عقيدتهم ، وعلى أن نوع انحرافهم عن عقيدة الحق إنما هو إشراكهم بهذا الإله الذى يعتقدونه دون غيره الرب الخالق المنعم .

ومن ذلك قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله » . « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله » . « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله » . « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله ، قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون » ؟ .

إلى غير ذلك من الآيات التى تجد الحجة فيها مسوقة إلى قوم لا ينازعون فى أن الله هو ربهم ورب كل شىء ؛ لإلزامهم بأن الرب الذى يعرفونه ، ليس هو الوثن الذى يعبدونه ، وإنما هو الله .

وقد جاء من هذا المعنى فى سورة الأنعام قوله تعالى : « قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون » . « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » .

فهذا تحكيم لضمائرهم وما استكن فى قلوبهم وما عرفوه فى أنفسهم من رجوعهم إلى الله وحده حين الشدة ، ونسيانهم الشركاء .

وجاء فيها أيضاً قوله جل شأنه : « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون » .

وهذا تحكيم لهم فيما يعرفونه من أساس الخلق ، وكون الخالق هو الله وحده ، ولهذا كله تقول السورة بعد أن عددت كثيراً من مظاهر الربوبية : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل » .

وأما الحجة بهذا على غير العرب ممن لا يعتقدون بإله خالق ، وإنما يرون هذه الحياة وما فيها من باب المصادفات والتفاعلات ، أو ممن يعتقدون أن هناك إلهاً للخير وإلهاً للشر ، أو آلهة متعددين ، فإنها لا تأتى من إيمانهم بمثل ما آمن به العرب من ربوبية الله لكل شيء ، ولكنها تأتى من لفت الأنظار إلى ما فى الكون من صنعة محكمة ، ونظام بديع مطرد شامل لكل شيء ، وأن العقول ليس من شأنها أن تتقبل الزعم ، بأن هذا الاطراد فى السنن والنظم ملايين السنين كلـه ، إنما كان عن مصادفات وتفاعلات ، أو أنه من صنع آلهة متعددة ، مع أن التعدد سبب للاضطراب والفساد ، لا للإتقان والتناسب والاطراد .

إن النظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء لابد أن يثمر الإيمان بالله ، ولذلك نجد العلماء المبرزين فى أية ناحية من النواحى الكونية مؤمنين بالله ، لأنهم رأوا أكثر من غيرهم عجائب صنعه ، واطراد نظامه ، والإنسان مفطور على الإحساس بالقوة الغيبية ، يرى آثارها فى نفسه وفى كل شيء حوله ، فإذا جاء من يلفت نظره إلى الكون وما فيه من الأسرار ، بل من يلفته إلى نفسه : كيف خُلق ؟ وكيف يفكر ؟ وكيف يعيش ؟ وكيف يموت ؟ فإنه لا بد متجاوب بروحه وقلبه مع هذا الذى يلفته ويوجهه ، مؤمن بهذه القوة الغيبية التى فطر على الإحساس بها ، وهى الإله القادر العليم الحكيم .

وبهذا تكون الحجة عامة لكل ذى عقل سليم ، وفطرة صافية ، وإخلاص فى تطلب الحقيقة من دلائلها المبثوثة فى آفاق السموات والأرض ، ولذلك يقول الله جل شأنه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » .

جوانب أخرى عرضت لها السورة تركيزاً لعقيدة التوحيد :

وقد أيدت السورة هذا الجانب ، وهو جانب النظر فى ملكوت السموات والأرض ، المفضى إلى الإيمان بالإله الحق ، بقصة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، حين تدرج بقومه إلى إبطال رأيهم ، وميراثهم الذى ورثوه عن آبائهم فى تأليه غير الله ، وفى ذلك جاءت الآيات الكريمة من قوله تعالى : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة » إلى قوله جل شأنه : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » .

وسنعرض لهذا الجانب بالتفصيل فى غير هذا الموضع إن شاء الله .

ويتصل بهذا الجانب ـ جانب التوحيد ـ ما جاءت به السورة فى ناحيتين :

الناحية الأولى : إبطال ما زعموا من تحريم ما لم يحرم الله ، وإحلال ما لم يحل ، وذلك فيما ذكرنا طرفاً منه حين تحدثنا عن وجه تسمية السورة باسمها ، والطرف الآخر هو استحلالهم قتل أولادهم ، وقد ذكرته السورة فى أثناء ما حكته عن شركهم وجعلهم لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، ولشركائهم نصيباً ، وذلك قوله تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون » وقد جمع الله تعالى بين تحريمهم بعض ما رزقهم من الأنعام والحرث ، وقتلهم أولادهم فيما تلوناه ، ثم فى إبطاله وتقرير خسارتهم به ، إذ يقول : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

الناحية الثانية : تقرير الوصايا العشر التى هى أمهات الأخلاق الفاضلة ، باسم الربوبية ، وذلك ما ذكر فى الآيات المبدوءة بقوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » .

فإن هذه الوصايا جاءت فى مقابل تحريمهم وتحليلهم لأنفسهم ، أو اتباعهم لشياطينهم ، أو لوحى شركائهم وأوليائهم فيما التزموا به من التحريم والتحليل ،

فكأن السورة تقول لهم : ليس التحريم والتحليل إليكم ولا إلى أحد ، إنما هو لله وحده ، فاستمعوا إليه يذكر لكم ما حرم عليكم ، ويؤيد ذلك أن هذه الوصايا جاءت مباشرة بعد قوله تعالى : « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا » والإشارة إلى ما حرموه ، وبينت الآيات فساد حكمهم فيه : « فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » .

وقد كانت خاتمة هذه الوصايا العشر الجامعة هي قوله تعالى : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » ، وهي جامعة لكل ما يتصل باستهداف التوحيد في العقائد والأعمال ، وتجنب التعدد والتفرق بالسبل المختلفة ، فإن الصراط الواحد هو الصراط المستقيم ، والصُّرُط الأخرى ضالة مضلة لا يحبها الله ، ولا يقرها ، ولذلك تقرر السورة بعد ذلك في صراحة وقوة أنها ليست مما يتفق والإسلام ، وأن رسول الإسلام بريء من كل تفرق في الدين أساسه الحزبية والتعصب ، فتقول :

« إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » .

وسيأتي تفصيل لذلك بعد هذا الإجمال إن شاء الله تعالى ؟